

المؤامرات اليهودية

من خيبر إلى القدس

للعقيد : حسن فتح الباب

مطبعـــة الأزهر

شعبان سنة ١٣٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت للرسول بيثرب - قبل أن يفد إليها المسلمون مهاجرين ثم يلحق بهم مع أبى بكر - روابط روحية وثيقة ، ففيها بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وفيها قبر أبيه عبد الله ابن عبد المطلب الذى كانت تحج إليه أمه آمنة ، وجده عبد المطلب الذى كفله منذ مولده ، ولقد زار الرسول مع أمه آمنة قبر أبيه فى السادسة من عمره ، وماتت أمه فى طريق عودتهما بين يثرب ومكة ، وكان الرسول عليه السلام يتجه وهو يصلى ناحية المدينة جاعلا قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس مقام موسى وعيسى عليهما السلام وذلك قبل أن يؤمر بأن يولى وجهه إلى الكعبة ، ومن ثم كان انتماؤه إلى المدينة لا يقل شأناً عن انتمائه إلى مكة ، ولقد زادت تلك الآصرة وثوقا بهجرة بعض صحابته إليها فراراً من اضطهاد قريش ثم هجرته إليها من بعدهم

أما صلة اليهود بيثرب فكانت تقوم على الإقامة بها واستغلال خيراتها ، والإثراء بعائدها من الثمرات والأموال ولقد اختاروها مقراً لسكناهم دون غيرها من الأماكن

بالجزيرة العربية لما عرفت به أرضها من خصوبة جعلت فيها كثيراً من الزروع والنخيل والأعناب ، ولموقعها الاستراتيجي الممتاز إذ كانت تمر بها القبائل فى ذهابها إلى الشام أو عودتها منها . فيشهد الناس بها منافع لهم وتزدهر فيها الحركة التجارية والاقتصادية ، وكان يهود يثرب يتألفون من بنى قينقاع فى داخلها ، وبنى قريظة فى فدك ، وبنى النضير على مقربة منها ، ويهود خيبر فى شمالها .

اليهود أشد كفراً من عُبَّاد الأوثان :

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أهل كتاب ودعاة وحدانية فإن التاريخ يسجل خروجهم على الرسالات السماوية ، وإهدارهم القيم الروحية والمبادئ الإنسانية قبل الإسلام وبعده ، وكانت علاقتهم بجيرانهم من الأوس والخزرج فى المدينة قبل الإسلام تقوم على الحقد والمقت .

وإذا كان لهؤلاء عذرهم فى عداوتهم لليهود بوصفهم من عبّاد الأوثان فماذا كان عذر اليهود وهم أصحاب التوراة ؟

و لقد أسلم الأوس والخزرج حين دعاهم محمد إلى شريعة الحق ، وقاموا بدورهم فى نشر عقيدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . أما اليهود فقد كابروا وضللوا وحاربوا الإسلام وما زالوا يحاربونه حتى اليوم . حقداً على أهله أن جاء منهم رسول الله ورغبة فى الاحتفاظ بمصالحهم ، والإبقاء على امتيازاتهم والاستئثار بكل خيرات الدنيا دون الخلق أجمعين

يُفرّقون بين الأوس والخزرج :

ويروى التاريخ أن المسيحيين فى الشام وكانوا يعادون اليهود لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح قد أغاروا على يثرب وقتلوا عدداً كثيراً من يهودها بعد أن استدرجهم الأوس والخزرج . وأنزلت هذه الهزيمة من النفوذ اليهودى بالمدينة . ذلك النفوذ الذى قام على الإقطاع الزراعى والتجارى ، وأعلت من مكانة الأوس والخزرج فحاولوا غير مرة أن ينكلوا باليهود ويستأصلوا شأفتهم ليظفروا دونهم بثروات المدينة ، وحين أدرك اليهود أنهم عاجزون عن الدفاع

عن أرضهم وأموالهم لفرط حرصهم على أرواحهم . لجأوا إلى سلاحهم التقليدى . سلاح الدس والوقيعة وإشاعة الفرقة بين الأوس والخزرج . ليشغلوهم عنهم بالتنازع والاقتتال ، ويستردوا بذلك بعض سيادتهم المهدرة وسلطانهم الضائع . وقد نجح اليهود فى سياستهم الخبيثة فظلت الحرب مستعرة بين الأوس والخزرج حتى دعاهم الرسول إلى الإسلام فى مكة حيث قدم بعضهم يلتمسون حلفاً فتركت دعوته أثراً فى نفوسهم ، ولـكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى القتال . ثم خرج نفر من الخزرج إلى مكة فى موسم الحج فلقيهم النبى ودعاهم إلى الله فأسلموا .

يستغلون معرفتهم ببعثة الرسول :

كان يهود المدينة يقولون للأوس والخزرج إذا اختلفوا معهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلّم النبى أولئك النفر من الخزرج القادمين إلى مكة للحج . نظر بعضهم إلى بعض وقالوا . والله

إنه للنبي الذى تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، ودخلوا فى دين الله وقالوا للرسول : (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وأن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك) .

ومن ذلك يتبين كيف كان اليهود يستغلون معرفتهم ببعثة محمد عليه السلام فى إرهاب الأوس والخزرج بقولهم : إنهم سينضمون إلى النبي المرسل ويحاربونهم معه فيجهزون عليهم بحكم رابطة الوحدانية التى تجمع بين اليهود وبينه ، مستهدفين من زعمهم هذا إلقاء الرعب فى نفوس منافسيهم فى المدينة حتى يصيبوهم بالوهن والعجز عن محاربتهم ، ومن ثم لاينازعونهم فى استعمار المدينة واستغلال أهلها ، وكانوا يهدفون من جهة أخرى إلى بذر بذور العداء بين الأوس والخزرج وبين النبي المبعوث حتى يعلم أولئك أنه سينضم إلى اليهود فى شن الحرب عليهم ، ومن الواضح أن اليهود كانوا كاذبين فيما زعموا من محالفتهم الرسول الذى علموا من التوراة بيعثه فى الجزيرة العربية إذ كانوا قد أعدوا العدة

للكيد له كى يظلوا هم وحدهم أصحاب عقيدة الوحدانية فيها ، ولم يكن ذلك تعصباً دينياً منهم بلغ حد الكفر فحسب بل حفاظاً على سلطانهم القائم على الاستعمار والاستغلال .

استقبال مغرض :

وقدم النبي مهاجراً إلى يثرب التى انتشر فيها الإسلام وعلا شأنه ، وانتظر أهلها على شوق أن يطلع عليهم البدر من ثنيات الوداع . فلما أشرقت طلعته استقبلوه أعظم استقبال سواء فى ذلك المسلمون الذين هاجروا من مكة والذين اتبعوا محمداً من الأوس والخزرج أو الذين لم يدخلوا الإسلام من قبائل المدينة ويهودها ، وقد يعجب امرؤ من أمر هؤلاء اليهود ، كيف يحسنون لقاء محمد وهم أعداؤه ! ولكن هذا العجب سرعان ما يزول إذ تتذكر ما طبع عليه اليهود من نفاق ومن رغبة فى الوصول إلى أهدافهم بغض النظر عن شرعية الوسيلة .

ومن هنا فقد أقبل اليهود على استقبال الرسول متظاهرين

بالمودة لعلهم يجنون بها ما لا يجنون بالمجاهرة بالعداء ، ولا سيما أنهم شاهدوا بأعينهم ما كان عليه الإسلام من بأس وقوة . فلا غرو أن يحيطوا بالرسول بين من أحاطوا به لعل ذلك يفيدهم سياسياً واجتماعياً . أما إذا مالت ريح القوة عن محمد فهم معها حيث تميل ، وإن هذه لموهبتهم التى لا يجاريهم فيها أحد من بني البشر ، ويعلل أحد الباحثين مبادرة يهود المدينة إلى حسن استقبال النبي بظنهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى حلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود ، شعب الله المختار فى زعمهم ، عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومى كما يفترون .

وظل اليهود يرقبون فى حذر تزايد النفوذ الإسلامى بالمدينة والغيرة تنهش صدورهم ، والنبى الكريم يؤمنهم ويكفل لهم حرية العقيدة مثلهم فى ذلك مثل المسلمين والنصارى كلهم سواء فى تلك الحرية ، بل إنه عليه السلام يفسح لليهود صدره ويوثق معهم صلاته فيتحدث إلى رؤسائهم وهو صاحب

السلطان الأكبر فى يثرب ، ويمنحهم مودته ، ويسبغ عليهم من عطفه ووفائه وبره ، حتى ليصوم يوم صومهم ، فضلا عن رابطة بيت المقدس التى تصله بهم إذ كانت قبلته فى الصلاة كما كانت قبلة أنظارهم ومثابتهم جميعاً .

معاهدة بين النبي واليهود :

واتجه الرسول بادىء ذى بدء إلى إنشاء وحدة سياسية ونظامية واجتماعية بين سكان المدينة من المسلمين واليهود ، ومهد لذلك بتوحيد المسلمين بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكان الأسلوب الذى اتبعه لتحقيق هذه الغاية أسلوباً فريداً فى تاريخ الدول والشعوب . بدأ العمل بعد أن كسب مودة اليهود على عقد تحالف سياسى معهم بوصفهم أفضل كتاب موحدين ضد المشركين من قريش .

وجاء هذا العقد ضمن صحيفة « وثيقة » كتبها الرسول بين المهاجرين والأنصار إذ واعد فيها اليهود وعاهدهم وأقرهم على عقيدتهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم « فمن تبعنا من

يهود فإن له النصرة والأسوة - أى المساواة فى المعاملة - غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوقع - يهلك ويفسد - إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة ولجفنة ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وان بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد - عليه الصلاة والسلام - وإنه لا يتحجر على ثار جرح - لا يلتئم حجر على ثأر ، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم ، وإن الله على أثر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين - وإن يثرب حرام

جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإن الله اتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وانه لاتجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين — إلا من حارب فى الدين — على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الإثم . لايكسب كاسب إلا على نفسه ، وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وان من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى » .

وتثبت هـذه الوثيقة التاريخية مدى الحقوق والحرمات الواسعة التى منحها محمد عليه السلام ليهود المدينة ممن وقعوا عليها ، حقوق وحريات مدنية وسياسية وعقائدية يتساوون بها مع المسلمين ، كما تسجل الالتزامات التى ألقيت على كاهلهم والتى تكفل لهم بدورها المساواة مع المسلمين ، وهى التحالف فى الدفاع عن المدينة إذا هاجمتها قريش والتضامن مع المسلمين فى احترام نصوص هـذه المعاهدة ، ومن ثم لم يمض غير قليل حتى أقبل يهـود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، وكانوا لم يشتركوا فى التوقيع على هذه المعاهدة ـ يعلنون عن رغبتهم فى الانضواء إليها ويقبل النبى هذا العرض فيوقعون عليها .

وانصرف النبى بعد تأمين الجبهة الداخلية بمقتضى هذا العهـد إلى شئون الدين وإلى تدعيم القيم الروحية فى نفوس المسلمين بإشاعة الإخاء والعدل والمحبة والرحمة بينهم واضعا بذلك أسس الدولة الإسلامية الأولى التى قامت على أكتافها قواعد الحضارة الجديدة .

أحقـاد اليهود :

وكان المأمول أن يسكن اليهود إلى دينهم ودنياهم ويطيبوا نفساً بهذه المعاهدة بعد أن كفلت لهم جميع الحقوق والحريات فلا أذى يخافونه ولا تفرقة يخشونها ، ولكن أنى لبنى إسرائيل أن يحفظوا عهداً أو يرعوا ذمة أو يقنعوا بازدهار تجارتهم وزيادة أرباحهم (لقد أحقدهم على النبي تزايد قوته وانتشار دعوته يوما بعد آخر فى يثرب ، ومن حولهـا وعجزهم عن تحقيق أطماعهم فى أن يضموه إلى صفوفهم ويستمدوه على خصومهم من النصارى ، وقد أوغر صدورهم عليه أن دعوته بدأت تمتد إلى اليهود أنفسهم مما أثار حنقهم وحفيظتهم

ولم يلبث اليهود أن خالفوا العهد الذى قطعوا على أنفسهم فبدأوا يكيدون للنبي وينكرون نبوته ويتآمرون ضـده مع من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهما نفاقا رغبة فى مغنم أو رهبة من مغرم ، ويدسون من أحبارهم من أظهر إسلامه للجلس بين المسلمين مـدعيا التقى والورع ثم

يوجه من الأسئلة إلى الرسول ما يظن أنها مثيرة فى نفوس المسلمين الشك فى رسالته ومزعزعة أيمانهم بها .

غير أن المسلمين كانوا على درجة عالية من الوعى والإيمان ففطنوا إلى ما يريد اليهود والمشركون من الوقيعة بين المهاجرين والأنصار والتفرقة بين الأوس والخزرج بإثارة الحزازات القديمة ، فواجهوهم بزيفهم وخبثهم وأعلنوا عليهم حرب الكلمة وقضى الرسول بنفسه على فتنة كاد اليهود أن يفلحوا فى اشعالها بين الأنصار بعضهم وبعض ، بل لقد جاوز اليهود الحد حين بلغت بهم أحقادهم أن يحاولوا فتنة النبي نفسه . فلما أخفقوا فى مسعاهم الخسيس فكروا فى أن يقنعوه بالجلاء عن المدينة والهجرة إلى بيت المقدس بحجة أنه مقام الأنبياء من قبله وكان أن أمره الله بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام .

سقوط الفتنة :

ولذلك أسقط فى يد يهود المدينة . فما أغناهم مكرهم السيء

شيئاً ، وسقطت مؤامراتهم وباءوا بالخسر والهوان ، وتكشفت وضاعة نفوسهم ولؤم طويتهم فأخلدوا مرغمين يائسين إلى الصمت حينا تربصا بما يسفر عنه المستقبل من أحداث يمكن أن يطلوا برءوسهم منها وينفذوا من خلالها إلى بث الفرقة فى صفوف المسلمين لزعزعة سلطانهم والتهوين من معتقدهم .

أما المسلمون بقيادة رسول الله فقد أصبحوا أكثر حذرا من اليهود والمنافقين ، وأكثر التفافا حول نبيهم ، والتحاما ببعضهم ، ولم يلبثوا قليلا حتى أحسوا بالحنين إلى مواطنهم الأولى فى مكة ، تلك التى أخرجوا منها كرها ، تاركين بها أموالهم ومتاعهم وتجارتهم ، ففكروا فى موقفهم من الفئة الباغية من قريش وأجمعوا أمرهم على ألا يكونوا مستضعفين فى الأرض بعد اليوم ، وكيف يستضعفون وقد ألف الإيمان قلوبهم وبينهم النبى وفى صدورهم كتاب الله .

وكان حرياً بالمؤمنين أن يتخذوا الموقف الذى يمليه

الحق وتدفع اليه الشجاعة والثورة على الظلم والعدوان .
موقف الدفاع عن النفس والمال والكرامة والوطن وحرية العقيدة ، وكان موقفا مفروضا لا خيار فيه .

قل موتوا بغيظكم :

تلك كانت مقدمات بدر ثم كانت الغزوة الكبرى فى تاريخ الإسلام ، فماذا كان موقف اليهود فى المدينة من انتصار المسلمين العظيم حين بلغتهم أنباؤه ؟ لقد بلغ منهم الغيظ والكمد مبلغه وأخذوا يكذبون الخبر ويرددون الشائعات المضللة عن مقتل الرسول مؤيدين زعمهم بأن ناقته القصواء قد عادت دونه يمتطيها زيد بن حارثة حامل البشرى إلى من بقى من المسلمين بالمدينة متهمين البشير الصادق بالهذيان رعبا وفزعا من الهزيمة المزعومة . بيد أن اليهود ما لبثوا حين سطعت شمس الحقيقة أن أدركهم الهوان والمذلة حتى قال كعب بن الأشرف ، أحد زعمائهم تعبيراً عن محنتهم : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

مقدمات الصراع العسكرى مع اليهود :

وتمادى اليهود فى الكيد للمسلمين المنتصرين والتحريض عليهم ضاربين بعهدهم معهم عرض الحائط وغالوا فى مناوشتهم وإيذائهم حتى ضاق المؤمنون بهم ذرعا . فأخذوا يردون العدوان بالعدوان ، ووقع من ذلك حادثان يشكلان السبب المباشر لإعلان الحرب على اليهود . أولهما : مصرع كعب ابن الأشرف من زعماء اليهود بسيوف بعض المسلمين لاجترائه على الذهاب إلى مكة بعد الغزوة لتحريض قريش على معاودة القتال ، وإنشاده الشعر فى هجاء النبى وبكائه أصحاب القليب من قتلى قريش وتشبيبه بنســـاء المسلمين بعـد عودته إلى المدينة .

أما الحادث الثـانى الذى ألهب شرارة العداء الكامن فى النفوس وفجر ركانه فقد ترتب على تعرض اليهود لإحدى العربيات المسلمات على وجه يخدش حياءها إذ كانت قد قدمت إلى سوق اليهود من بنى قينقاع تعرض حلية على صائغ منهم ،

فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى عليهم ذلك . فجاء يهودي من خلفها في خفية منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله ، وتكاثرت اليهود على المسلم فقتلوه ، واشتبك المسلمون مع اليهود من بني قينقاع وكادت الحرب أن تقع بينهما لولا أن تدخل النبي فطلب إلى اليهود أن يكفوا أذاهم عن المسلمين احتراما لعهدهم وإلا نزل بهم ما نزل بقريش ولكنهم تحدوه في استخفاف قائلين : (لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) .

غزوة بني قينقاع :

وكان اليهود بني قينقاع ما أرادوا من قتال ، فقد تصدى النبي لهم وأعلن الحرب عليهم بعد أن تحدوه علانية ونكثوا بعهدهم ، ولما خرج المسلمون للقتال ولى اليهود الأدبار

ولاذوا بحصونهم معتصمين فأحكم عليهم المسلمون حصاراً دام خمسة عشر يوما متتابعة حتى أوشك زادهم أن ينفد. فاستسلموا وأعلنوا نزولهم على حكم النبى فرجع إلى مستشاريه فى الأمر وانعقد الرأى على قتلهم جميعاً. فاستعطفه فيهم عبد الله بن أبى بن سلول وكان يهوديا من أكابر بنى قريظة وحليفاً لبنى قينقاع كما كان حليفاً للمسلمين. وانضم إليه عبادة ابن الصامت فى رجائه فقبل الرسول أن يحسن إلى مستشفعيه على أن يجلو بنى قينقاع عن المدينة جزاء وفاقا لهم، ونفذ قرار الرسول فيهم فارتحلوا عن المدينة تاركين أسلحتهم وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغونه حتى نزلوا وادى القرى، فأقاموا بها ثم غادروها بعد حين وساروا شمالا حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام واتخذوا منها منازل لهم. وقضى على جذور الفتنة فى المدينة بإجلاء بنى قينقاع منها إذ كانت القبائل اليهودية الأخرى تقيم بعيداً عن المدينة بخيبر وأم القرى، وكان من آثار هذا الإعصار الذى هب على بنى قينقاع أن أخلدت تلك القبائل إلى الهدوء والسكينة

بعد أن نزل فى قلوبها الرعب . ولكنها - بطبيعتها اليهودية - ظلت تتربص بالنبى وصحبه الدوائر .

لا يستنصر بأهل الشرك :

ثم كانت غزوة أحد بوقائعها ذات العبر والدروس الخالدة فى تاريخ الإسلام ، تلك الدروس التى تتبلور فى تعاليم رسول الله إذ خرج إلى المسلمين لابساً درعه متقلداً سيفه نازلا على رأى الكثرة التى أبت إلا الخروج إلى العدو وملاقاته على غير ما أشار به القائد العظيم من تحصن بالمدينة فقال هؤلاء ، وقد شعروا بالندم لمخالفتهم أمر النبى :(ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ، والأمر إلى الله ثم إليك) فقال محمد صلى الله عليه وسلم : (قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم) .

ولما نزل الرسول بالمسلمين فى موقع بين المدينة وأحد ، رأى كتيبة لا يعرف أهلها ، فسأل عنها فقيل : هؤلاء حلفاء ابن أبى من يهود . قال عليه السلام لا يستنصر بأهل الشرك ما لم يسلموا . فانصرف ابن أبى مع اليهود عائدين إلى المدينة ، وتلك حكمة أخرى تطالعنا فى سيرة الرسول كى نقتفع بها فى تعاملنا ووضع خططنا وأساليب تنفيذها فى مواجهة أعداء الدين ، أعداء القيم الروحية والإنسانية .

وكأنما صادفت قولة رسول الله هوى فى نفوس اليهود ، لأنهم ما عرضوا انضواءهم تحت أعلام المسلمين فى الحرب إلا تظاهراً يمليه الطمع أو الخوف ، ومصداق ذلك أنهم لم يراجعوا النبى ولم يصمموا على مقاتلة قريش إلى جانبه إعلاناً عن صدق نيتهم ؛ بل نكصوا على أعقابهم إلى المدينة بقيادة ابن أبى فرحين ، وهم يقولون له : (لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى من آبائك فكان رأيه مع رأيك ، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه) . وتلك دعوى باطلة تدل على تخاذل اليهود عن نصرة النبى فى ساعات حرجة

كان عدد المشركين فيما يوازى خمسة أمثال عدد المسلمين الذين هاجموهم وعدتهم فى مثل هذه النسبة ، كما تدل على خروجهم على الجماعة .

فرحة اليهود بما أصاب المسلمين :

وغنى عن القول ما غمر نفوس اليهود والمنافقين من غبطة بما أصاب المسلمين فى أحد ، فبدأوا يرفعون رءوسهم مسفرين عن أحقادهم شامتين ساخرين مستهزئين . ومما زادهم سروراً مقتل ستة من أصحاب الرسول غدراً بيد قبيلة هذيل عند ناحية تدعى الرجيع بالحجاز وكان قد أوفدهم إليها لتعليمها الشريعة إجابة لطلبها ، فقتلت منهم أربعة وأسرت اثنين هما زيد بن الدثنة وخبيب سلمتهما إلى قريش فقتلتهما . وأعقب ذلك مقتل أربعين رجلا من خيار المسلمين كان قد بعثهم النبى إلى أهل نجد لدعوتهم إلى الإسلام بناء على نصيحة أبى براء عامر بن مالك وكان مسموع الكلمة فى قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه ، فلما نزلوا بئر

معونة أحاطت بهم بعض القبائل المعادية للإسلام فدافعوا عن أنفسهم بالسيوف وهم قلة حتى قتلوا عن آخرهم لم ينج منهم إلا كعب بن زيد .

مؤامرة يهودية لقتل النبي :

لقد انكشف الغطاء ، وكادت الصحف التي تضمنت معاهدات الرسول مع اليهود أن تتحول إلى ألفاظ جوفاء ، فليعرض عليهم آخر عروضه وضعاً للأمور في نصابها ، فإذا أبوا فلا يلومن إلا أنفسهم . وهكذا ذهب محمد صلى الله عليه وسلم إلى يهود بني النضير في حيهم على حدود المدينة ليكشف بنفسه عن طويتهم بعد أن تواترت أخبار ائتمارهم به . فأظهروا حسن استعدادهم للتعاون معه ، ولكنه استراب في سلوك بعضهم ولا سيما أن أحدهم دخل البيت الذي كان مستنداً إلى جداره وأوحى الله إليه بنيتهم في اغتياله صلى الله عليه وسلم ؛ فانسحب من مكانه تاركاً أصحابه الذين ما لبثوا أن عادوا إلى المدينة وأدركوه في المسجد .

غزوة بنى النضير :

ولم يكن أمام الرسول بعد أن أجمعت الشواهد على عداوة بنى النضير وشروعهم فى قتله لإشعال الفتنة والقضاء على الدعوة إلا أن يصدر أمره بإجلائهم عن المدينة ، فبعث يطلب محمد بن مسلمة وقال له : « اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » وأسقط فى يد المتآمرين ، ورأوا كيف كانت عاقبة مكيدتهم ، فما استطاعوا لها رداً ، وأذعنوا لقرار محمد العازم . وبدأوا يستعدون للجلاء عن مساكنهم ، وقد تقطعت أنفاسهم حسرات وذكروا أولاد عمومتهم من بنى قينقاع فى نفيهم كما رجعوا بذاكرتهم إلى الماضى البعيد يوم كتب الله عليهم الضلال فى التيه جزاء لهم بما بدر منهم من جحود ونكران وعصيان لأمر الله وأمر نبيه موسى ، وها هم أولئك لا يتعظون بعد

مرور تلك الحقب الطوال ، وكلما أتى منهم جيل كان شراً مما سبقه ، وحقت عليهم لعنة من الله بعداوتهم للإنسانية وجنايتهم على الشرائع الإلهية وما تحض عليه من التزام بالقيم الأخلاقية .

وعزّ على المنافق عبد الله بن أبى أن يرى بنى النضير يبعدون عن المدينة ويلحقون ببنى قينقاع فى منفاهم وهو لا يحرك ساكناً فأرسل إليهم يحرضهم على عصيان أمر النبى ومقاومته ويعدهم بالمساعدة بالرجال والسلاح قائلا : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم . وداخل بنى النضير من ابن أبىّ شك ، لما ذكروا من تخاذله عن الوفاء بعهده لبنى قينقاع حين حاصرهم المسلمون وكان قد وعدهم العون ، ولمعرفتهم بما بين قومه بنى قريظة وبين المسلمين من حلف ، ولأن فى مقدورهم أن جلوا عن المدينة إلى خيبر أو غيرها من

النواحى المجاورة أن يعودوا إلى يثرب حين يثمر نخيلهم، فيجنوا الثمرات ثم يعودوا أدراجهم .

ما أغنى عنهم كيدهم :

ورفض يهود بنى النضير عرض ابن أبىّ وانتهى بهم الرأى إلى الأخذ بمشورة كبيرهم حيى بن أخطب وهو عدم الخروج من المدينة مخالفة لأمر النبى وتحديا له ، ووضعوا هذا الرأى موضع التنفيذ فالتزموا حصونهم بعد أن أعدوا بها ما يكفيهم من الماء والطعام ردحا من الزمن ، وظلوا كذلك عشرة أيام لا يغادرونها . فما كان من المسلمين إلا أن ساروا اليهم مدججين بالسلاح فقاتلوهم عشرين ليلة وهم محصنون فى بيوتهم ، ولم يكن ثمة بديل من القضاء عليهم أو إجلائهم هنالك أصدر النبى أمره بقطع نخلهم وحرقه لإكراههم على التسليم ؛ فليس أشد وقعا عليهم من رؤيتهم أموالهم تذروها الرياح وهم أشد الناس حرصاً على متاع الحياة الدنيا وتضحية فى سبيله بقيم الشجاعة والشرف ، وهم قد لاذوا بحصونهم رافضين الجلاء تعلقا بهذه الأموال .

فالآن لا يغنيهم إصرارهم شيئا بعد أن يأتى المسلمون على نخلهم ، ونجح تدبير الرسول ، إذ خارت عزائمهم وأدركهم الجزع فصرخوا يعلنون استسلامهم فى مقابل الإبقاء على زروعهم منادين النبى بأنه كان ينهى عن الفساد ويعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ، وفى ذلك نزل قوله تعالى ردا مفحما لليهود فيما زعموا من فساد عمل الجند المسلمين حين قطعوا زروعهم : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) .

عن الرحمة :

أولئك هم اليهود تأبى يهوديتهم إلا أن تغلب عليهم فى جميع المواقف . أنهم أرباب الفساد فى الأرض والمحرضون على الفتنة ومثيرو الحروب والواغلون فى دماء الضحايا منذ أقدم عصور البشرية ، لا ينهاهم وازع من ضمير ولا إيمان بقيمة من القيم ، ومع ذلك فهم يذكرون الصلاح والخير والعدل والشفقة حين يؤخذون بجرائمهم ويعاقبون على

إفسادهم ، ويطلبون الرحمة بهم - إذا عجزوا - وهم الظالمون ولا يستعملونها إذا قدروا مع المظلومين .

وكذلك أحق الله الحق وأبطل الباطل فتباكى يهود بنى النضير المجرمون حين أدركهم اليأس فانصاعوا صاغرين لأمر النبي ، وسألوه الابقاء على حياتهم وأموالهم وأولادهم حتى يخرجوا من المدينة . فاشترط عليهم أن يجلوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ماشاءوا من مال أو طعام أو شراب ، ليس لهم غيره ، وتطهرت منهم أرض يثرب حيث لحقوا ببنى قينقاع فى أذرعات بالشام وأقام بعضهم مع يهود خيبر ، وبدأ النبى من جديد يرسى دعائم الجبهة الداخلية بعد أن وقاها شر الحرب الأهلية بقضائه على الفتنة فى مهدها ولم يجرؤ المنافقون على أن يرفعوا رءوسهم بعد أن اجتثت أصول الشجرة الملعونة ، وفى إجلاء يهود بنى النضير عن المدينة وتراخى بن أبى وسائر المنافقين عن معاونتهم كاوعدوهم جبنا أمام المسلمين ونزل قول الله تعالى :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبين • لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون • لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

وتصم هذه الآيات اليهود بالكفر وتزعزع الإيمان كما يدل على خوفهم من المؤمنين دون الله تعالى ، ومفهوم المخالفة - كما يعبر فقهاء القانون - أن الدليل على صدق الإيمان هو الخوف من الرب لا العبد ، فللإيمان على النفس التى تعرف قيمته سلطان لا يعد له سلطان مهما بلغ شأنه ، لأن فى عقيدتها ألا سلطان لغير الله ، وصدق الله العظيم :

« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله

ذو فضل عظيم انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلاتخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » .

غزوة بنى قريظة :

لم يكد المسلمون بقيادة رسول الله ينصرفون إلى تنظيم حياتهم فى الحياة آمنين مطمئنين حتى تواترت أنباء عيونهم وأرصادهم عن احتشاد المشركين من قريش لقتالهم بتحريض من بنى قينقاع وبنى النضير الموتورين الذين قاموا بالدور الرئيسى فى تجميع شمل القبائل المعادية للانقضاض على محمد وأصحابه بالمدينة أخذا بالثأر وقضاء على الدعوة التى هددت مصالحهم التجارية والسياسية وأصبحت تنتشر فى الجزيرة العربية يوما بعد يوم حتى لتوشك أن تحاصر قريشا وحلفاءها ثم تقضى عليهم ، وكانت غزوة الخندق التى نصر الله فيها المؤمنين نصراً عزيزاً وباء المشركون واليهود بخذلان مبين .

وقد سبق أن ذكرنا فى تحليل هذه الغزوة ما كان من أمر يهود بنى قريظة بعد تفكير الأحزاب فى الانسحاب إذ

نقضوا عهدهم مع رسول الله والمسلمين وكادوا أن يعرضوهم لهزيمة مرة لولا ثبات المؤمنين وكشفهم فى الوقت المناسب خيانة اليهود . فليس من الحكمة أن ينجو هؤلاء من العقاب بعد فرار الأحزاب وعودة النبي وصحبه منتصرين إلى ديارهم لا ردعا وزجرا لهم فحسب بل تأمينا للوطن والعقيدة ، فهم لا شك عائدون إلى مؤامراتهم بما جبلوا عليه من طباع الحقد والجحود والخيانة ومن ثم ، أهدر رسول الله دماء بنى قريظة وأمر أن يتجهز المسلمون لمهاجمتهم والقضاء عليهم ونادى مناديه : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة

وهرع المسلمون إلى الجهاد واجتمعوا عند ديار اليهود فوجدوهم يهجون النبي ويلقون فأحش القول فى نسائه وهم معتصمون بقلاعهم الحصينة وأقبل النبي يتحداهم ناعتا أياهم بإخوان القردة ناعيا عليهم أن الله أخزاهم وأنزل بهم نقمته فلم يجترئوا على الرد عليه . ثم حاصرهم المهاجرون والأنصار حصارا دام خمسا وعشرين ليلة تخللها بعض التراشق بالسهام والحجارة حتى يئس اليهود وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة

ولا حول لهم ولا قوة فى مواجهـة عزمات فولاذية أرهفها الإيمان ولن تحيد عما انعقدت عليه مهما طال أمد الحصار حتى يستسلم بنو قريظة .

قضية حياة أو موت :

هنالك انخلعت قلوب أولاد الأفاعى كما وصفهم المسيح عليه السلام ، وغشاهم الذعر فاستجاروا بأبى لبابة من أصحاب الرسول وكان من الأوس حلفائهم وبكت نساؤهم بين يديه فنصحهم أن ينزلوا على حكم رسول الله ، وانتهت مشاوراتهم إلى التسليم ، فعرضوا على النبى أن يخرجوا إلى أذرعات تاركين أموالهم ، فأصر على أن يستسلموا بلا قيـد ولا شرط ، واستشفع فيهم الأوس ، فعرض عليهم أن يحكموا واحدا منهم يختاره اليهود ويرتضى الطرفان بقضائه ، فاختاروا سعد بن معاذ ، وكان قـد حضر نقضهم عهد المسلمين وإطلاقهم أقبح الهجاء فى النبى وحـذرهم فلم يتعظوا ، فأمر بأن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح فأذعنوا ، فحكم بأن يقتل

المقاتلون منهم وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء وتنفذ الحكم ، وهو قصاص عادل جزاء من جنس العمل ، فلو أن قريشا وحلفاءها قد انتصروا بخيانة بنى قريظة لأجهزوا على المسلمين ولم يبقوا منهم أحـــدا ، وهم لا شك فاعلون ذلك لو أتيحت لهم الفرصة ، فما فعله المسلمون كان أمرا لا بد منه ، وكان دفاعا عن الحرية والأمن والعقيدة ، كان قضية مصير .

انتقال الخطر اليهودى إلى حدود الشام :

وهكذا أمن الرسول جبهة المدينة ، وتطلع بعدها إلى تأمينها من الخارج ، فعقد مع قريش عهـد الحديبية الذى ينص على تهادن الفريقين عشر سنين أو ستين كما فى رواية الواقدى ، ولم يبق موطن للخطر — بعد أن أمن الجنوب كله .

إلا شمال المدينـــة حيث يهود خيبر يطوون جوانحهم على الرغبة العارمة فى الثـأر والتعطش لسفك دماء المسلمين وهم يشهدون حولهم أبنـاء دينهم من بنى قينقاع و بنى النضير ، ومن بقى من بنى قريظة يذكرونهم بعارهم كل صباح ومساء .

ولم يكن خطر هؤلاء ليغيب عن خاطر النبى يوما ، فهو يعلم أنهم أشد عداوة له من المشركين وأخس نفوسا وأقدر على انتهاج الأساليب الخبيثة فى حربهم عليه ، وأنهم لم يتورعوا عن مخالفة الشيطان فى سبيل الوصول إلى غرضهم . وهو تدمير المدينة بمن عليها من المسلمين انتقاما لطرد بنى قرابتهم وتنكيلا بالمهاجرين والأنصار . ذلكم هم اليهود ـ كما شهدت عليهم وقائع التاريخ ـ يحقدون على أصحاب الحق ويشايعون أرباب الباطل ولا يحترمون الشرائع . جماعات من المغامرين المستغلين نهازى الفرص أعداء القيم عباد المال من دون الله ، ينهون عن المعروف ويأمرون بالمنكر ، ويتخذون من المشركين مخلب قط لهم يحاربون دونهم فإذا انتصروا قاسموهم الغنائم وإذا انهزموا لم ينلهم سوء . ولقد رد الله كيدهم فى نحورهم فما انتصر المشركون فى وقعة على جنود الله من عشرات الوقائع التى خاضوها غير مرة واحدة فى أحد وكانت نكسة للمسلمين لكنهم تعلموا منها الكثير وما هزموا من بعدها

أبدا ، بل كانت تجربة لاستئناف الجهاد فى سبيل العقيدة على أسس أقوى حتى فتح الله عليهم مكة ثم فتح عليهم بلاد الروم و بلاد الفرس .

مؤامرة يهودية منتظرة :

وفى سبيل درء الخطر المتمثل فى يهود خيبر شمالى الجزيرة العربية على حدود الشام حيث يحكم الرومان كان النبى كعادته يبعث من المسلمين طلائع تتعسس أخبارهم وتقف على نواياهم وما يدبرون من خطط ضد المسلمين حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة . فهكذا علمه الله ودلته التجربة : « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » وإذا كان اليهود قد جنوا ثمار الخيبة المرة حين استعدوا عليه قريشا وحلفاءها ، ولقنوا درسا قاسيا ، فلسوف تغلب عليهم يهوديتهم فينسون ذلك الدرس ويحاولون الإيقاع بالمسلمين من جديد مستغلين صلة الجوار بينهم وبين الرومان والفرس . وإذا لم يسع هؤلاء إلى التحالف معهم ضد النبى فإنهم أصحاب مصلحة ملحة

فى المبادرة بالسعى . ولا ريب أن هذه القوى الأجنبية أقدر من القبائل العربية على محاربة المسلمين لأنها أكثر عددا وعدة وأفضل تنظيما ولا سيما إذا قام يهود خيبر بإذكاء عداوة حكام فارس وبيزنطة ضـد المسلمين وفتح أعينهم على الأخطار التى يتعرضون لها من انتشار الدين الجديد وتزايد نفوذ الدولة الإسلامية الناشئة بقيادة محمد عليه السلام .

وانساق يهود خيبر فى التنفيس عن أحقادهم حين فكروا أنهم قادرون على مؤازرة الفرس أو الرومان من طريق إمدادهم بما لديهم من تجارب وخبرات ومعلومات عن الجيش الإسلامى وأساليبه الحربية وإقناع القبائل العربية على الحدود ممن ظلوا على الشرك أو لم تصلهم الدعـوة بعد بالانضمام إلى صفوف أعدام الإسلام .

لا مناص من حرب وقائية :

لم يغب كل ذلك عن خاطـر النبى ، فليس مثله من يعلم بخبيئة نفوسهم وتصوراتهم وأطماعهم ، وها هو ذا يعتزم

أن يغتنم فرصة مهادنة قريش ليمضى قدما فى سبيل نشر العقيدة خارج الجزيرة العربية فيوفد مبعوثيه إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها يدعوهم إلى الإسلام . ولكن يهود خيبر يشكلون أكبر عقبة فى هذا السبيل ، وهم لا شك ساعون إلى إفساد غايته الحميدة بالغدر والتأليب عليه، ولن تجدى معهم معاهدة مثل عقد الحديبية ، فليس ثمة مفر من إجلاء اليهود قاطبة عن الجزيرة العربية والقضاء بذلك على تلك الشوكة اللعينة المغروسة فى جنب الإسلام ، واستئصال الأفعى الكامنة على حدود الشام، وليكن هذا هو القضاء الأخير عليها ، وليكن الأمر ابتدارا كعادة الرسول إذ كانت كل حروبه وقائية أو دفاعية فإن أى تأخير فى الوقت من شأنه أن يتيح ليهود خيبر فرصة الإعداد والتجهيز ، واستعداء القبائل الموالية لهم والمعادية للمسلمين .

غزوة خيبر

لقد أحكم النبى الأمر كله بحيث يصبح النصر مكفولا

للمسلمين ويصبح في مقدوره إنفاذ رسله للدعوة خارج الجزيرة فهاهو ذا قد عقد هدنة الحديبية ليأمن جانب قريش ، وهاهي الروح المعنوية لجنــوده في أعلى مراتبها بفضل ما آتاهم الله من نصر في جميع الوقائع التي خاضوها في حياة النبي باستثناء أحد ، وما يسره للإسلام من انتشار وقوة ومنعة، وماهيأه للرسول من فتح مبين بعهد الحديبية كما وصفه الله تعالى بقوله : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » .

إذ اعترفت قريش لأول مرة بالمسلمين اعتراف الند بالند وأقرت لهم بحق زيارة البيت وإقامة شعائر الحــج دلالة على اعترافهم بدين الإسلام .

وأمر رسول الله أن يؤذن في الناس بالتأهب للحرب ولما يمض على عودته من الحديبية إلا شهر أو بعض شهر ، ولــكن متى هدأ النبي وأصحابه عن الجهاد ، وهم ما عادوا من غــزوة إلا إلى غزوة ، وكذلك أراد الله أن ينذروا أنفسهم لإعلاء كلمته في الأرض لا يردهم عن ذلك خــوف ولا طمع ، وكان

أمره عليه السلام ألا يغزو معه إلا من حضر الحديبية إدراكا لما فاته بعقد الهدنة من شرف الجهاد واقتسام الغنائم ، وأن يستثنى من يغزو متطوعا بغير نصيب مما يصيب الجيش من غنيمة.

وسار النبي على رأس جيشه ، وكان يتألف من ألف وستمائة رجل ومعهم مائة فارس يتحرقون شوقا للنصر أو الشهادة ، حتى إذا بلغوا خيبر بعد ثلاثة أيام وشاهد اليهود جموعهم تزحف إلى حصونهم أدركهم الذعر فولوا صائحين : هذا محمد والجيش معه . فقال رسول الله : (خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم، ساء صباح المنذرين) . ولاذ اليهود بحصونهم يحشدون مئونتهم وأموالهم . ويجهزون أسلحتهم وذخائرهم ، وكان أهل خيبر أقوى الطوائف اليهودية عدة وعتادا ، وأغناهم مالا وأمنعهم حصونا وأقدرهم على الحرب . وقد أدركوا أن هذه الموقعة هى آخر مواقعهم مع المسلمين فإما الحياة وإما الردى ومن ثم تشاوروا فيما بينهم وانعقد إجماعهم على مواجهة النبي وجيشه ، وحرضوا بعضهم بعضا على النزال ، وكان المؤمنون يتحرقون شوقا إلى قتال اليهود

أعداء الله وقد عبئوا كامل قوتهم ودرسوا كل احتمالات الموقعة .

ودارت المعركة حول الحصون بين الفريقين حامية الوطيس وتساقطت القتلى والجرحى من الجانبين ، ودارت الدائرة على اليهود فدخلوا حصونهم فزعين وهم لا يملكون دفع المحاربين الأشداء من أصحاب رسول الله ، وقد قتل قائدهم سلام بن مشكم ولكنهم لم يستسلموا بل استماتوا فى القتال كما استمات المسلمون فى الهجوم ، وتقدم أبو بكر ليفتح أكبر حصونهم ثم تقدم بعده عمر فلم يفتح الحصن ، فعهد النبى إلى على بفتحه فقاتل وهو يحمل راية النبى وسجل كعهده صفحة مجيدة فى تاريخ الأبطال إذ خرج إليه أهل الحصن واشتبكوا معه فى القتال وضربه أحدهم فسقط ترسه من يده فاستعاض عنه بباب كان عند الحصن وظل يقاتل به حتى فتح الحصن ثم اتخذ منه قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية هذا الحصن المنيع .

وفتحت سائر الحصون واحد بعد الآخر ، والهول مطبق باليهود من كل مكان والخوف من وقوعهم فى أيدى المسلمين يجعلهم يحاربون فى ضراوة وقسوة وكان المسلمون يقاتلونهم

قتالا شديدا ، والأيام تتتابع، ومؤنتهم تتناقص حتى ليأذن لهم الرسول بأكل لحوم الخيل . بيد أن سقوط الحصن الذى اتخذه اليهود مخزنا لطعامهم قد سد حاجة المسلمين فواصلوا حصار بقية الحصون ومهاجمتها . وكانوا يقطعون الماء عن الحصن الذى لا يقدرون على فتحه ، فيضطر المحاربون فيه إلى الخروج منه والاشتباك بالمسلمين ثم الفرار أمام قوة شكيمة أصحاب رسول الله .

هنالك دب اليأس فى قلب العدو ، ولا سيما أن المسلمين أبدوا من ضروب الاستبسال فى الهجوم والإصرار على فتح الحصون مهما كانت التضحية ما جعل اليهود ينهارون بعد أن دكت معظم مواقعهم ويطلبون من النبى حقن دمائهم والإفراج عن أموالهم التى حازها بعد وقوع حصونهم فى يده .

وانتصر المسلمون ولم يشأ رسول الله أن يخرج بنى خيبر من أرضهم كما فعل مع بنى قينقاع وبنى النضير بل أبقى عليهم بها على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم ، وبسقوط خيبر سقط سلطان اليهود وأمن المسلمون شمالى الجزيرة العربية .

موقفان :

وفى ختام الحديث عن هذه الغزوة يحسن أن نقف قليلا لنسجل حسن مقابلة النبى لأهل خيبر بعد فتحها ، وقد بلغ من ذلك أنه كان من بين ما غنم المسلمون من غزوها عدة صحائف من التوراة ، فطلب اليهود ردها فأمر النبى بتسليمها لهم ، وياله من موقف جليل لا يتخذه غير محمد ﷺ وغير خلفائه وحاملى المشعل من بعده ، إن عظمة هذا الموقف تبدو بأجلى معانيها إذا لاحظنا أن شريعة الحروب فى ذلك الحين كانت تعطى المنتصر حق التصرف المطلق بحكم الفتح فى شخص المنهزم وكل ما يملك ومن له عليه ولاية ، وإن هذا الزمن لم يكن يعرف ميثاق الأمم المتحدة ولا ميثاق حقوق الإنسان بما ينص عليه من احترام الشعائر الدينية ورعاية الأسرة وعدم التفريق فى المعاملة بسبب اختلاف اللون أو الجنس أو الدين أو الموطن .

وإذا لاحظنا كذلك أن اليهود كانوا كما قدمنا أشد

أعداء الإسلام خصومة وأكثرهم مساءات إليه وأخبثهم تآمراً على النبي وأصحابه ، وأنهم لو ملكوا من أمر المسلمين شيئا لما تورعوا عن التنكيل بهم ، وإذا لاحظنا أخيرا أن الرومان حين فتحوا أورشليم أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وأن النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى أسبانيا أحرقوا صحف التوراة ، ولكنه محمد رسول الله والذين آمنوا يحترمون الصحف التى أنزلت على الرسل من قبله تقديساً لكلمات الله وتوصيات أنبيائه، وإن كانوا يعلمون أنها حرفت وأن أصحابها لم يعملوا بها فساموا المسلمين العذاب ولم يحترموا مادعوا إليه من حق دعا به من قبل الرسل والأنبياء

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لايهدى القوم الظالمين » .

تسليم اليهود فى وادى القرى :

ولم تبق بعد غزوة خيبر غير بضعة جيوب لليهود على

طريق عودة المسلمين منصورين إلى المدينة . فكان هناك يهود فدك الذين اعتصموا بحصنهم فأرسل إليهم النبى يدعوهم إلى الدخول طواعية فى الإسلام أو تسليم أموالهم من غير قتال ، فقبلوا الصلح على أساس النزول عن نصف أموالهم وتم لهم ما اختاروا .

وكان هناك يهود وادى القرى الذين أبوا إلا قتال المسلمين وما أن حمل المسلمون عليهم حتى رفعوا راية الاستسلام جبنا وهلعا ، وقبل الرسول عقد صلح معهم بالشروط التى أخذها على خيبر ، أما يهود تيار فقد أعلنوا عن اختيارهم دفع الجزية .

أسمى من العفو والتسامح :

وعاد الركب المؤمن المظفر إلى المدينة ، ترفرف عليه أعلام الحق وتشيد بانتصاراته الركبان فى كل مكان ، وتلهج الألسنة بمآثره . ولم تقم لليهود فى الجزيرة العربية بعدها قائمة فى عهد الدولة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول ﷺ ولا فى عهد

خلفائه من بعده ، وأمن الرسول الشمال كما أمن الجنوب ، ومن مركز القوة تسامح الرسول مع الراغبين من اليهود فى العودة إلى يثرب بعد انهيار سلطانهم وخضوعهم للمسلمين .

بل لقد ضرب عليه السلام مثلا حيا يتجاوز التسامح مع الأعداء والعفو عنهم عند المقدرة إذ وقف مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبى وعزى ابنه ، وهو الذى كانت حياته سلسلة من المؤامرات التعصبية والسياسية ضد الإسلام ويكفى أنه كان المحرض على غزو المسلمين فى المدينة والمؤلف بين أحزاب المشركين .

وزاد النبى باليهود رفقا وإحسانا فأوصى معاذ بن جبل بألا يكرههم على ترك دينهم ، ولم يلزم يهود البحرين بدفع الجزية وإن ظلوا على يهوديتهم . وصالح بنى غازية وبنى عريض على أن لهم الذمة وعليهم الجزية لكنهم لم يذعنوا أفرادا .

ولئن أذعن اليهود جماعة بعد هزيمتهم فكفوا شرهم عن المسلمين خوفا ورهبة من أخذهم بجرمهم إذا سولت لهم نفوسهم

أن يعودوا إلى مؤامراتهم ، فإنهم لم يذعنوا أفرادا . فهيهات أن تتخلى عن اليهودى يهوديته التى تطفح غلا وحقدا والتى تسكن حتى تتمكن فلا ترحم .

ولقد عبرت هذه الغريزة المعادية للإنسانية عن نفسها فى شخص امرأة من اليهود كانت تدعى زينب بنت الحارث إمرأة سلام بن مشكم إذ أهدت إلى النبى شاة فقبلها منه بعد مصالحة خيبر ، وحين أعدت للطعام ذاقها فأدرك أنها مسمومة فنهى أصحابه الذين تجمعوا حولها عن أكلها ، ولكن أحدهم وهو بشر بن البراء كان قد زرد منها قطعة إطمئنانا فمات ، واعترفت اليهودية وعللت جريمتها الغادرة بما أكل قلبها من ضغينة لما لاقاه قومها من مصير على يدى الرسول ورغبتها فى الانتقام تشفيا منه .

وتذكرنا هذه المؤامرة بواقعة مشابهة مما سبق أن أشرنا إليه سياق هذا المبحث وهو شروع يهودى من بنى النضير فى قتل الرسول متربصا عامدا حين توجه إليهم مع

كبار أصحابه فى أعقاب نكسة المسلمين فى أحد ليسبر غورهم ويطلع على دخيلتهم فتبسط بعضهم معه ليشغلوه عن تآمر سائرهم وذهاب ذلك اليهودى المجرم إلى ناحية البيت الذى كان النبى مستندا إلى جداره يريد أن يقتله ويوشك أن يتم خيانته لولا ظرف خارج عن إرادته وهو يقظة الرسول وكشفه أمر المؤامرة وانسحابه من مكانه .

وفى رأينا أن كلتا الواقعتين كانت عملا جماعيا مدبرا ، فاليهودى بطبعه لا يقدم على جرم إلا بعد التشاور مع جماعته احتماءا بها من جانب إن أخفق فى مسعاه ، وإحكاما لجريمته من جانب آخر ضمانا لنجاحها . ومن ثم فإننا نرجح أن جريمة اليهودية التى لم تتم كانت نتيجة اتفاق جنائى مشترك .

جرائم غير مستغربة :

ولئن وصم التاريخ جرائم اليهودية فى حق الإسلام والمسلمين بالشناعة ، فهى جرائم لا تستغرب إذا ذكرنا أنهم طالما كادوا لأنبيائهم أنفسهم حتى بلغ بهم الأمر أن قتلوا بعضهم

وهم فى ذلك ليسوا أعداء البشرية فحسب بل أعداء لأنفسهم أيضا ، ولئن كانوا قد عرفوا بالذكاء والمهارة فإن هذا الذكاء انقلب وبالا عليهم فى جميع مراحل التاريخ لأنه ذكاء لا يسنده مبدأ سماوى ولا قيمة إنسانية ؛ ومن ثم فهو كالهشيم ما أسرع ماتذروه الرياح بددا. « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

حكمة النبى فى أمر اليهود :

على أن النبى عليه السلام لم يعامل اليهود كما عاملوه ، فهم بشر خاطئون ولكنه نبى كريم ، وهو لم يحكم على بنى قينقاع وبنى النضير بالنفى وعلى المحاربين من بنى قريظة بالقتل إلا بعد أن أثبتت الحوادث أنهم أعدى أعداء الإسلام ، وأنهم لن يسكتوا عن المسلمين حتى يفنوهم عن آخرهم بيد المشركين وأيديهم ، ومن ثم فكان فرضا على الرسول أن يعجل بعقابهم هذا إنقاذا للإسلام والمسلمين ، ولم يكن ثمة خيار فى هذا الموقف ، فقد كان شأنهم شأن عضو فاسد فى الجماعة لم يجد علاجه وهو

يوشك أن يعدى سائر الأعضـــاء فلا مفر من بتره إبقاء على حياتها . كذلك ، فإن الحـكم الذى أصدره الرسول فى أمر هؤلاء الأعداء الخونة كان أمرا من أمور الحرب يجوز فى حق جميع الأطراف المتحاربة . وكانت الحروب التى شنها النبى على اليهود حروبا مشروعة عادلة ، لم يخضها إلا بعد أن استنفد جميع ذرائع السلام ، وقد راعى فى تطبيقها الاتزان والحكمة فما لجأ إلى عنف إلا لضرورة ملحة اقتضاها الدفاع عن النفس واتقاء الخطر المؤكد . ولم يكن قضاء النبى فيهم انتقاما منهم بل ردعا لهم وزجرا لغيرهم ممن قد تسول لهم أنفسهم الاعتداء على المسلمين والصد عن دعوتهم .

قوانين الأمم والشعوب :

وآية ذلك تلك الرحمة التى أسبغها النبى على اليهود بعد أن تضعضع نفوذهم وضعفت شوكتهم وعجزوا عن إلحاق الأذى بالمسلمين ، مما شهدت به المواقف التى اخترنا بعضها فيما سبق

ذلك أن الرحمة كانت القيمة الأولى التى طبقها الرسول فى شأن أعدائه وقت السلم التزاما بما أمره الله به .

بل لقد أفسح الرسول صـــدره لليهود بعد هزيمتهم فى غزوة خيبر حتى يأمنوا ويكفوا عن بغضائهم وخصومتهم للمسلمين ويدخلوا آمنين فى دار الإسلام التى تظل جميع الأديان وبلغ من ذلك حـدا ليس له سابقة فى تاريخ البشرية ضاربا بذلك المثل الحى على قيمة الرحمة والرفق بالعدو المهزوم، ولاسيما إذا كانت تجمعه بالمسلمين رابطة الكتب السماوية ورابطة الموطن الواحد : ذلك أن مثل هـــذا العدو فى كافة قوانين الشعوب قديما وحديثا يستحق من العقوبة ضعف ما يستحقه العدو الخارجى لأن الأخير أجنبى يسيره حكامه وقواده ويلقونه أنه يحارب فى سبيل وطنه وعقيدته . أما العدو الداخلى فهو خارج على الإجماع ، متمرد على أهله ووطنه ، بائع لهم بأرخص الثمن ، جاحد لما منحوه من ود وحب وإحسان ، مرتكب بذلك جريمة الخيانة العظمى وهى أقبح

الكبائر وأشدها نكرا لأن خطره على الجبهة فى الداخل أضعاف خطر المحارب الأجنبى بحكم معرفته بأسرار دولته التى أودعته ثقتها ، وتشتد هذه الخطورة إذا وقعت الخيانة والعدو على الأبواب . وإذا كان الشاعر العربى القديم يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

فكيف إذا خان ذوو القربى وكان الوقت وقت حرب ؟

وليس أدل على قيمة الرحمة التى شمل النبى بها اليهود بعد إذعانهم من مصاهرته لهم . وتبلغ هذه القيمة الذروة إذا علمنا أن هذه المصاهرة قد تمت بعد حادث اليهودية التى أرادت قتله بالسم ، وما نجم عنه من انتزاع بذور الثقة التى كانت قد بدأت تنبت فى نفوس المسلمين حيال اليهود بإيحاء من الرسول الذى تغاضى عن رجوع بعضهم إلى المدينة .

المؤرخون المنصفون :

لقد كانت صفية بنت حيي بن أخطب إحدى سبايا خيبر ، وقد قتل أبوها وكان من زعماء يهود بنى النضير كما قتل زوجها كنانة بن الربيع فى الحرب فقيل للنبى : « صفية سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك » فاعتقها وتزوجها .

وفى هذا الزواج دلالة واضحة على تآلف جميع أفراد الجماعة حتى العصاة منهم بالرفق بهم والإحسان إليهم بعد أن يوفوا العقوبة الموقعة عليهم ، وذلك كما سبق أن بينا فى كتابنا (مقومات القيادة الإدارية فى الإسلام) عند بحثنا فى أهمية انتماء القائد إلى الجماعة ، من طريق القربى والمصاهرة وما إليها من أسباب التقارب والوحدة لما تكفله لها من مزيد من القوة المعنوية التى لا تقل عن القوة التى يكفلها الانتصار فى الحرب وحيازة الغنائم ، ولأن مثل هذه الرابطة من تقاليد العظماء الفاتحين الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم ،

ويتقربوا إليهم ضمانا لخدمة مصالحهم واستقرار السلام في ربوعهم .

وعلى الرغم مما أجمع عليه المؤرخون والباحثون الأحرار الذين يتحرون الحقيقة فيما يصدرون عنه من آراء وأحكام من تعصب اليهود وكراهتهم لغيرهم من أبناء الديانات الأخرى وسعيهم الدائب في سبيل الإثراء على حساب الغير والتنكيل بمن يقف في سبيلهم بأدنأ الأساليب وأخبثها وسفك دماء الأبرياء ، فلا يمكن القول على الإطلاق ، أن كل يهودي عدو للجنس البشرى ، وإنما الصحيح هو إطلاق هذا الوصف على اليهود في مجموعهم وعلى المتعصبين منهم خاصة وليس عليهم فردا فردا .

وآية ذلك أن صفية بنت حيي قد أسلمت وحسن إسلامها ، فأقامت على الوفاء للنبي حتى اختاره الله إلى جواره ، وقد شهد الرسول لها بصدق إيمانها ، ولكن أمثال صفية من النساء والرجال قلة نادرة بين اليهود لايقاس عليها ، هذا من ناحية ،

ومن ناحية أخرى ، فإنه لا يمكن أن نعد هذه المرأة يهودية يغلب عليها طباع أهلها بعد أن أسلمت واختارها رسول الله زوجة له .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

وبعد ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أجدر بنا أن نتدارس تاريخ صراع النبي وأصحابه ليهود المدينة وخيبر فى ظل الأحداث التى نمر بها اليوم فى مواجهة الصهيونية أداة الاستعمار الجديد وقاعدته فى أرض الأنبياء ، وأن نستخلص من مواقف رسول الله وخططه وأساليبه وما عبرت عنه من قيم ومبادئ عبرا تنفعنا اليوم ونحن نجتاز أدق مرحلة فى تاريخ الإسلام والعروبة ، ونعمل على تأمين ديننا وقوميتنا فى معركة المصير ضد أعدائنا وأعداء القيم الإنسانية .

وأول الدروس التى نستخلصها من كفاح النبى عليه السلام ضد اليهود المعتدين فى الجزيرة العربية أن عدو المسلمين والعرب والإنسانية بأسرها اليوم هو بذاته عدو الأمس خسة

وغدرا وحقدا وإصرارا على البغى والسعى بأخبث الأساليب للوصول إلى أغراضه فى التملك والسيطرة على ثروات الآخرين. فإسرائيل القاعدة الاستعمارية للاحتكارات الأمريكية والغربية طمعا فى مشاركتها بعض الغنائم على حساب الشعوب المناضلة ، وإسرائيل التى تستولى غصبا على فلسطين العربية الإسلامية ، وعلى أراض عزيزة أخرى اقتطعتها بالعدوان المبيت ودنستها بأقدام جنودها المرتزقة ، هى امتداد طبيعى لما غرسه يهود المدينة وخيبر فى نفوس أبنائهم وأحفادهم من كراهية للإسلام والمسلمين .

فلقد استنفذ اليهود كل وسائل الصد عن دين الله الحق ، والإيذاء لنبيه وأصحابه ، فمن دسائس يحيكونها للتفرقة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج إلى محاولة لفتنة المسلمين عن دينهم وردهم إلى الشرك . ولقد كان النزاع الجدلى الذى أثاره اليهود أشد مكرا من ذلك النزاع الذى ثار بين النبى وبين قريش إذ كانوا يلبسون الباطل ثوب الحق مستغلين علمهم ومعرفتهم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، مندسين

فى صفوف المسلمين بالمسجد لإثارة شكوكهم بما يوجهونه إلى رسول الله من أسئلة خبيثة ظاهرها الرغبة فى العلم وباطنها إثارة البلبلة . وقد لج اليهود فى جدالهم هذا حتى اشتبكوا مع المسلمين بالمدينة بالأيدى على الرغم مما كان من عهد بين الجانبين .

اليهود موصومون بكتاب الله :

وفى هذا الجدال المستمر بين رسول الله و بين اليهود نزلت آيات الذكر الحكيم تنعى عليهم إنكارهم ما فى التوراة وهى كتابهم ، وتلعنهم لعصيانهم وكفرهم :

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق

لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين »[1].

كما نزل قول الله تعالى فى واقعة (فنحاص) اليهودى الذى دعاه أبو بكر إلى الإسلام فرد قائلا : « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه أغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان غنيا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا » ، وفنحاص يشير هنا إلى قوله تعالى : « إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم » ولم يطق أبو بكر صبرا على هذا البهتان فغضب على الرغم ما كان عليه من حلم وأناة ، ولطم فنحاص على وجهه وقال : (والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله) . وشكا فنحاص إلى النبى وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله . فنزل قوله تعالى .

« لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ،

(١) البقرة : ٨٧ — ٨٩ .

سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق » .

ولقد تمادى اليهود فى كيدهم حتى سولت لهم أنفسهم المجبولة على الحقد أن يحاولوا فتنة رسول الله نفسه . ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وساداتهم ذهبوا إليه وقالوا له : « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن اتبعناك اتبعتك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك » فنزل فيهم قوله تعالى:

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » [1] .

وبلغت شدة عداوة اليهود للنبى عليه السلام حداً وصل

---

(١) المائدة : ٤٩ ، ٥٠ .

إلى التآمر على اغتياله ، ولـكن الله أحبط سعيهم وباءوا بالخسران والخزى المبين .

تأصل النزعة العدوانية اليهودية:

أما الدرس الثانى المستفاد من تاريخ الصراع بين نبى الحق ويهود المدينة وخيبر فهو تأصل النزعة التوسعية اليهودية عن طريق المـكر والنفاق ، فإذا لم يصل بهم إلى مبتغاهم عمدوا إلى طريق الغصب والسطو ، ومن أهم مظاهر هذه النزعة التوسعية العدوانية فى تاريخ يهود المدينة فى عصر الرسـول ﷺ رغبتهم فى الاستئثار بيثرب وإجلاء النبى وأصحابه عنها . فحاولوا ـ كما سبق القول ـ أن يقنعوه بالجلاء عن المدينـة ، وأن يهاجر إلى بيت المقدس حيث ذهب من سبقه من الرسل وكان به مقامهم ، وأدرك رسول الله غايتهم وأمره الله سبحانه بعد سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ، فنزلت الآية :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

ولما صدع الرسول بأمر ربه وجعل قبلته إلى المسجد الحرام ساء ذلك اليهود فحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم : إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته ، فنزل قوله تعالى :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » [1] .

ولما خابت مؤامرات اليهود ودسائسهم أسفروا عن عدوانهم وكشفوا عن وجوههم فأعلنوها حربا على النبى وتحالفوا مع المشركين فكان غزوهم وقتالهم وطردهم من المدينة .

[١] البقرة : ١٤٢ ، ١٤٣ .

والدرس الثالث المستخلص من وقائع الحرب بين الحق الذى نزل به محمد عليه السلام وبين الباطل الذى دمغ بنى إسرائيل أن يدرك كل مسلم وكل عربى أن أطماع اليهود لا تقف عند حد ، وأن الوسائل السلمية لا تجدى فى إقناعهم بالامتثال للحق ، وأنه لا سبيل إلى رد عدوانهم إلا بالقتال كما فعل رسول الله وأصحابه .

الجريمة البشعة والأدلة الدامغة :

ولقد كشف اليهود الصهيونيون عن أطماعهم فى الاستيلاء على القدس بارتكابهم الجريمة البشعة فى القدس العربية حين أضرموا الحريق عمدا فى المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ــ الكعبة المشرفة فى مكة ومسجد الرسول فى المدينة ــ ومسرى رسول الله ﷺ ، ومعهد الأنبياء ، ومتعبد الأولياء . وليس غريبا أن يقدم العدو على محاولة إحراق المسجد الأقصى إذ يزعم الإسرائيليون أن هذا المسجد الإسلامى العظيم يقوم على أنقاض هيكل سليمان

وقد أعلنوا مرارا أنهم ينوون إعادة الهيكل فى نفس المكان الذى يدعون أنه كان قائما فيه ، أى بعد أن يهدموا المسجد الأقصى ويتخلصوا منه .

من كلماتك أدينك يا إسرائيل :

ولقد كشف العدو الإسرائيل عن أطماعه هذه منذ وقت طويل وأعلنها صراحة ودون مواربة أو مداراة . فقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية المطبوعة باللغة الإنجليزية تحت كلمة الصهيونية ما يلى : « أن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم ويأتوا إلى القدس ويتغلبوا على قوة الأعداء ويعيدوا العبادة إلى الهيكل مكان المسجد الأقصى ويقيموا ملكهم هناك » .

و لم تكد الصهيونية العالمية تحصل على وعد (بلفور) فى نوفمبر عام ١٩١٧ بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين حتى تقدم رئيس الحاخامات اليهودى بفلسطين ومعه ممثل الحركة الصهيونية فيها بطلب رسمى إلى حكومة الانتداب البريطانى

للاستيلاء على منطقة المسجد الأقصى لهدمه وبناء معبد سليمان مكانه .

ومنذ عام ١٩٢٠ لم تكف الصهيونية عن محاولات الاستيلاء على منطقة المسجد الأقصى رغم عدم وجود دليل تاريخى واحد يقطع بأن بقايا هيكل سليمان موجودة فى هذه المنطقة ، أو أنه بنى فيها أصلا ، أو أن حائط البراق الذى يسميه الإسرائيليون حائط المبكى هو جزء من الهيكل القديم فعلا .

ومن الأدلة الدامغة على أطماع الإسرائيليين فى القدس أنه فى عام ١٩٢٩ أعلن الإسرائيلى (كلونز) رئيس جمعية الدفاع عن الحائط المبكى فى تصريح له نشرته صحيفة « بالستاين ويكلى » اليهودية : « أن المسجد الأقصى القائم على قدس الأقداس فى الهيكل إنما هو لليهود » .

وفى ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٩٣٠ بلغت الوقاحة برئيس حاخامى رومانيا إبراهام روزنباخ أنه بعث كتابا إلى رئيس المجلس الشرعى الإسلامى ومفتى فلسطين الأكبر يطالب فيه

بتسليم المسجد الأقصى لليهود ليقيموا فيه شعائرهم الدينية ، الأمر الذى أثار ضجة كبرى فى فلسطين .

وفى نفس العام تقريبا أعلن الفرد مند الوزير اليهودى البريطانى السابق : « إن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أصبح قريبا جدا ، وإنى أكرس ما بقى من أيام حياتى لبناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى .

وفى عام ١٩٦٧ أعلن دافيد بن غريون « أنه لا معنى لإسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس بدون انتزاع موقع الهيكل من العرب » .

ثورة البراق :

ومع أن هذه الأقوال كلها تدل على نوايا الإسرائيليين وتفضح هدفهم فى هدم المسجد الأقصى ،فإن العدو لم يكتف بالكلام ، بل انتقل إلى المرحلة العملية وحاول طيلة الوقت أن يحقق أمله ببناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى .

وقد جاءت المحاولة العملية الأولى فى ٢٠ آب سنة ١٩٢٩

أى قبل أربعين سنة تماما من إحراق الإسرائليين للمسجد . ففى ذلك اليوم حاول اليهود تغيير الأوضاع الراهنة عند حائط المبكى والاعتداء على المسجد واحتلال جزء منه فثار العرب ، وفى اليوم التالى انطلقت مظاهـرة كبرى فتكت باليهود المعتدين .

وما لبثت الاضطرابات أن عمت مدن فلسطين فيما عرف يومئذ باسم (ثورة البراق) والبراق هو الحائط الغربى للمسجد الأقصى الذى يسميه عدو حائط المبكى - ونتيجة لهذه الثورة أحرقت بيوت الإسرائيليين ومخازنهم فى الخليل وصفد ويافا والقسم العربى من مدينة حيفا ، وكانت حصيلة الثورة عدة مئات من القتلى والجرحى .

محاولة اقتحام الأسوار :

ووقعت المحاولة الثانية فى ١٥ أيار ١٩٤٨ عند ماحاولت قوات الهجاناه - إحدى العصابات الصهيونية - اقتحام أسوار

المدينة القديمة للوصول إلى المسجد الأقصى واحتلاله ، ولكن قوات الجهاد المقدس الفلسطينية بالتعاون مع الجيش الأردنى سحقت كل تلك المحاولات ، وتكسرت أطماع إسرائيل يومئذ على أسوار القدس زهرة المدائن .

احتلال المدينة :

وفى ٧ حزيران سنة ١٩٦٧ استطاع العدو أن ينتزع من الأمة العربية مدينة القدس ، ويرفع رايته البغيضة على قبة مسجد الصخرة المشرفة ويدنس المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله وأظهر فيه آياته ، وينتهك حرمة مسرى محمد عليه الصلاة والسلام .

وعندما احتل جيش العدو الإسرائيلى القدس ، كان أول شىء عمله قواده وضباطه وزعماؤه مثل بن جوريون ، وديان ، وزلمان شازار رئيس الدولة ، أن ساروا إلى الحائط الغربى للمسجد الأقصى (المبكى) يتقدمهم الحاخام جوريون حاخام الجيش فنفخ فى البوق وفقا لطقوسهم الدينية ثم أقام الجميع

الصلاة هناك ، حيث أعلنوا أن موعد بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى قد أزف .

أعمال الهدم والحريق :

ومنذ ذلك الوقت والعدو يعمل بلا انقطاع لتحقيق حلمه هذا ، وقد بدأ خطواته الإجرامية بهدم البيوت العربية المحيطة بالمسجد ، ثم بدأ يحفر وينقب تحت بناء المسجد بحجة البحث عن آثار الهيكل ، حتى خشى على هذا البناء من التصدع والانهيار كما أعلن الخبراء ، ولكن يبدو أن المتطرفين من الإسرائيليين ملوا لبطء أعمال الحفر وعدم تهدم المسجد الأقصى حتى الآن — فانتهزوا الذكرى السنوية الأربعين لثورة البراق التى حبطت فيها آمالهم باحتلال المسجد الأقصى وأقدموا على إشعال النار فيه .

ومن المعروف أن الإسرائيليين لا يريدون الاكتفاء بهدم المسجد ، بل ينوون إزالة جميع المقدسات الإسلامية والمسيحية من المدينة إزالة تامة كاملة حتى يزول اهتمام مختلف الطوائف

والشعوب بالمدينة وتعلقهم العاطفى بها ، بعد أن تصبح القدس مدينة يهودية شأنها شأن تل أبيب ، كما أعلن العدو غير مرة .

وقد أشار عدد من رؤساء الدين المسيحيين وبينهم البطريرك حكيم الروم الكاثوليك فى لبنان ، والمطران نعمة سمعان مطران طائفة اللاتين فى الأردن ، إلى قيام الإسرائيليين بهدم الكنائس وتدنيسها :

تاريخ المسجد الأقصى :

تلك هى قصة الاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة التى بلغت الذروة فى ٢٠ أغسطس الماضى بجريمة إحراق المسجد الأقصى الذى يرتبط تاريخه بتاريخ الوجود العربى فى هذه المنطقة من العالم ، وقد جاء أول ذكر له فى القرآن الكريم فى سورة الإسراء ، وفى الآية الكريمة :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . والقرآن يشير بذلك إلى إسراء الرسول العربى الكريم محمد إلى السماء عن طريق القدس وكانت وسيلته

البراق الذى أطلق اسمه فيما بعــد على الحائط الغربى للمسجد بعد بنائه .

وقبل ذلك كان المسلمون يســتقبلون المسجد الأقصى فى صلاتهم ، ولهذا كان للمسجد الأقصى مكانة لاتعادلها إلا مكانة المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة .

مدينة السلام :

وتضم مدينة القدس الصخرة المقدسة وهى من الأماكن المقدسة عند أصحاب الديانات السماوية جميعاً ، وعند المسلمين بعد الكعبة والمسجد النبوى . والصخرة المقدسة هى أبيت المقدس الذى أقيم بجواره المسجد الأقصى ، ويرجع تاريخه إلى عهد قــديم سبق الإسلام والمسيحية واليهودية جميعاً ، ومدينة القدس — فى سبقها للأديان الثلاثة — تشبه الكعبة وإن لم يكن لها قدمها .

وفى منتصف القرن السابع الميلادى — سنة ٦٣٦ م — أى قبل ٣٢٣ — وقف عمرو بن العاص بجيوشه على أبواب القدس

التى كانت تعرف باسم « إيلياء » بعد أن انسحب قوات الرومان منها ، ولكن بطريرك الروم الأرثوذكس فى المدينة البطريرك (صفرونيوس) أبلغ عمرو أنه لن يسلم المدينة إلا للخليفة عمر ابن الخطاب .

وجاء عمر من مكة وسلمت له مدينة القدس زمامها سلما وكان الشرط الأساسى الذى وضعه البطريرك هو عدم السماح ليهوى واحد بالإقامة فى القدس ووافق الخليفة على ذلك . ولما فتحت القدس أبوابها لعمر بن الخطاب دخلها وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وأعطاهم عهداً بذلك وهو المعروف (بالعهدة العمرية) .

وخلال وجود الخليفة فى المدينة زار حرم المسجد الأقصى وكان المكان خرابا تجمعت فيه الأتربة ، فجعل يزيحها بيديه وتبعه الصحابة الذين كانوا معه ، وراحوا ينظفون المكان حتى برزت الصخرة المشرفة ، فأمر عمر ببناء مسجد عليها ، وتم ذلك فى عام ٦٣٧ ميلادية .

صلاح الدين الأيوبى يسترجع بيت المقدس :

ودارت عجلة التاريخ ، فاستولى الصليبيون على بيت المقدس فترة قصيرة ، ولكن سرعان ما استرجعها منهم صلاح الدين الأيوبى سنة١١٨٧م ، فقد أقسم صلاح الدين على أن يأخذ بيت المقدس بحد السيف ، قائلا لرسل الصليبيين الذين جاءوا لطلب الأمان « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهلى (أهل القدس) حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وأجزى السيئة بمثلها » . فرد عليه الصليبيون قائلين : « إذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهما ، فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى » ، وذلك هو موقف الاستعمار دائما ببيت المقدس عندما يفشل فى الاحتفاظ بأرض العروبة وأملاكها ، يلجأ إلى المقدسات فيحرقها ويخربها ، فلتراجع الصهيونية التاريخ ليعلموا ماذا كان مصير الصليبيين ! !

ومن حسن الطالع أن وافق يوم استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدين السابع والعشرين من رجب وهى ذكرى ليلة المعراج التى أسرى الله فيها ليلا برسوله خاتم أنبيائه محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وقد كانت عمارة المسجد الأقصى ـ فى الجبهة الجنوبية ـ من رقعة الحرم الشريف ـ على يد الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك سنة ٧٠٥ م ولذلك فقد جاء فى تخطيط سقفه ومجازه وقبته على طراز المسجد الأموى بدمشق الذى يعرف لهذا السبب باسم قبة النسر أو قبة النصر والذى يرجع تاريخه إلى نفس الخليفة ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى عبثت يد الصليبيين بالحرم الشريف ، فجعلوا قسما منه كنيسة ، واتخذوا القسم الآخر مسكنا لفرسان الهيكل ومستودعا لذخائرهم ، ولكن سرعان ما أمر صلاح الدين بترميم وتجديد ما تخرب منه فجدد محرابه وكسا قبته (التى حرقتها إسرائيل بالأمس) بالفسيفساء وأحضر له منبر الإمام الحسين رضى الله عنه من عسقلان ،

وتوالت يد التجديد والترميم على المسجد الأقصى منذ ذلك التاريخ فرممت جوانبه وفرشت أرضه بالطنافس المصنوعة فى جميع أقاليم العالم الإسلامى والتى أتى على بعضها الحريق الصهيونى .

وفى سنة ١٩٢٧ طرأ على المسجد خلل فهبت الشعوب الإسلامية ، وساهمت فى جمع مبلغ مائة ألف دينار عمر بها المسجد ، وفى سنة ١٩٣٦ تصدعت أروقة المسجد إثر زلزال آخر فقامت الجمهورية العربية المتحدة بتعميره ، وإعادة بناء الجانب الشرقى الذى حرقه المعتدون الإسرائيليون .

ذلك هو المسجد الأقصى الذى قال الرسول ﷺ فى فضله من حديث رواه أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل فى بيته بصلاة واحدة ، وصلاته فى مسجد القبائل بست وعشرين صلاة ، وصلاته فى المسجد الذى يجمع فيه بخمسمائة صلاة ، وصلاته فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاته فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » .

شهادة التاريخ :

وتلك هى الأدلة التى تثبت أن المسجد الأقصى الذى تحاول إسرائيل هدمه وبناء هيكل سليمان على أنقاضه هو أحد المقدسات الإسلامية ، أسرى إليه رسول الله ﷺ وبناه عمر بن الخطاب وأقام المسلمون منذ عهد صلاح الدين الأيوبى حتى الآن على ترميمه وتجديده . ولكن إسرائيل لا تلقى بالا لهذه الأدلة التى لا يأتيها الشك — رغم تشدقها بالتاريخ — وإنما تركز اهتمامها على استغلال المشاعر الدينية لليهود كيما يتاح لها تنفيذ مخططاتها التوسعية بكل ارتباطات هذه المخططات بالأطماع الإمبريالية ضد الشعوب العربية .

وإذا كانت إسرائيل تحاول الآن أن تنفض يدها من حريق المسجد وتتنصل من هذه الجريمة البشعة وإلصاقها بأحد المأجورين وتصوير الباعث على أنه الهوس الدينى، فإن حقيقة الأمر — إذا سلمنا جدلا بأن هذا العمل هو الذى أحرق

المسجد فعلا ـ أن من قدمته إسرائيل للاتهام كان مجرد أداة لا تختلف كثيرا عن المواد الحارقة التى أضرمت النيران بالحرم القدسى، ثم يبقى الاتهام معلقا فوق السلطات الإسرائيلية ذاتها يؤكده طابعها العدوانى وتاريخها فى معاداة الإسلام والإنسانية قاطبة ومحاولاتها السابقة للاستيلاء على القدس وهدم المسجد الأقصى .

حرق المسجد جريمة يائسة :

إن هذه الجريمة التى تقترفها إسرائيل فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل مواجهة عدوانية وتوسعية ، تقدم الدليل الحاسم على أن الحركة العنصرية المتمثلة فى إقامة إسرائيل مثلها مثل النازية والفاشية فى أواخر النصف الأول من القرن تشكل خطراً داهما على سلام وأمن شعوب العالم بأسره وليس الشعوب العربية والإسلامية فحسب ، ولقد اعترف بعض السياسيين الغربيين ـ رغم انحيازهم إلى إسرائيل ـ أن الأعمال

الانتقامية التى تقوم بها ضد الجبهات العربية قد فقدت فاعليتها ، لأن الدول العربية التى تواجه إسرائيل ، أثبتت واحدة بعد الأخرى أنها قادرة على التغلب على أعمال إسرائيل وما تهدف إليه من ورائها ، وأن إسرائيل لا تستطيع التحدث بعد اليوم من مركز القوة .

وقد جاء هذا الاعتراف قبل يوم واحد من الحماقة الخطيرة التى ارتكبتها إسرائيل بالاعتداء على المسجد الأقصى وهو ما يعنى أن فشل التشدد يؤدى إلى مزيد من تورط العدو فى الجريمة اليائسة التى سوف تثبت الأيام أنه انتحر بارتكابها .

وليس ثمة شك فى أن الاحتلال الصهيونى الطارىء لمدينة القدس وقيام الإسرائيليين بتدنيس المقدسات وهدم المسجد والكنائس والسعى لإحراقها ومحاولة تهويد القدس ، لن يكون إلا مجرد صفحة سوداء فى تاريخ الإنسانية جمعاء وستطويها إلى الأبد عزيمة العرب والمسلمين وإصرارهم على

تحرير زهرة المدائن من القدم الهمجية مهما اشتد الكفاح وطال أمده . وسوف تكتوى إسرائيل بالنيران التى أضرمتها أمس فى القدس ، تلك النيران التى دلت على جنون العدو بعد الضربات المتتابعة التى يتلقاها من المجاهدين ، والوحدة التى أخذت تجمع صفوف المسلمين لمواجهة الخطر الصهيونى .
ومثلما فشل يهود المدينة وخيبر فى تحقيق أهدافهم العدوانية وقضى عليهم المسلمون الأوائل بقيادة رسول الله قضاء لم تقم لهم قائمة بعده ، فلسوف يلاقى الصهيونيون المعتدون اليوم — فى مواجهة القيادات العربية المؤمنة والشعوب المناضلة المتمسكة بدينها وتراثها الحضارى — مصير أسلافهم الذين وصمتهم وقائع التاريخ بالعداء الشديد للقيم الإنسانية الفاضلة .
على حين يسجل التاريخ أروع الصفحات للعرب والمسلمين الذين طالما احتملوا الأعباء وتقدموا للدفاع عن الحق والعدالة الإنسانية كلما هددها معتد أثيم ، غير باخلين بأرواحهم

أو أموالهم فداء للمعانى والمثل الكريمة التى غرسها الإسلام فى نفوسهم .

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ..

حسن فتح الباب

مطبعة الأزهر

٩٠٠٠/١٠/١٩٦٩